القصة الثانية

حبٌّ من زمنٍ آخر.

"حبك يا عابثة، أنت مَنْ أخجل القمر بجمالها، أنت لحن الخلود، أنت زهرة براري فاحت بعطرها، أنت لي كلُّ الورد، أنت مَنْ يسكن البحر في عيونها، أنت قلبٌ بالعشقِ يجود، أحبك لأنَّك أنت، ومن سواكِ في القلب يسود".

مقتبس

*****

تدندن ممسكةً جيتارها الخشبي، وهي جالسةٌ على رمال الشاطئ، لا يبعد بيتها كثيرًا عن السَّاحل، وهي تأتي كلما اِحتاجت أن تبقى وحدها، وتعمل على كتابة الأغاني وتلحينها.

كانت تعزف لحنًا سمعته من مكانٍ ما.. لم تذكر أين، وهي تحاول أن تؤلف له أغنية مناسبة.. تكتب مقطعًا ثم تدندنها، فتمحي بعضًا، وتزيد بعضًا.

وبينما هي جالسة وحدها تحتضن جيتارها، وتعزف على أوتاره، كان هناك شابٌّ يراقبها، تقرَّب منها، وقال: "اللحن رائع حقًّا ! لكن الكلمات تحتاج إلى جهدٍ أكثر". توقفت فانيسيا عن العزف وقالت: "وهل أنت خبيرٌ يا ترى؟".

ابتسم وأجاب: "نوعًا ما".. مدَّ يده ليصافحها، ويقدِّم نفسه لها قائلًا: "اسمي جووانت".

قالت: "وما شأنكَ باسمي.. لا أعتقد أنه مهم جدًّا أن تعرفه".

أجاب جو: "معكِ حقٌّ، لكن لا أزال عند رأيي.. اللحن رائع، لكن كلماتك تحتاج إلى عملٍ أكثر.. حاولي أن تكتبي لشيء تحبينه.. تحسينه، الكتابة ليست فقط فنًّا بمقدار أنها إحساس وشعور".

رفعت فانيسيا حاجبيها وقالت: "لديك وجهة نظر صائبة".

نهضت من مكانها.. حملت جيتارها وتأهبت للعودة إلى منزلها، فقال لها: "ما رأيك لو رأيتك هنا مرة أخرى غدًا".

قالت: "أهذه ثقةٌ أم غرورٌ؟".

قال: "تستطيعين أن تجمعي بينهما، لكني أستطيع مساعدتكِ لو سمحتِ".

أجابت وهي تبتعد بخطوات عنه: "لنجعل لقاءنا الثاني صدفة، وأنا اسمي فانيسيا".

ورحلت هي عنه وهو ظلَّ واقفًا هناك في نفس المكان.. لم يتحركْ قط، حتى تلاشت من أمامه، وهي تختفي بين الناس.

تعود إلى منزلها.. كان والدها يعد بعض الفطائر بطعم التوت البري. وقفت معه في المطبخ وقالت: "آه الرائحة شهيَّة كثيرًا يا أبي، لكنَّ المكانَ مبعثرٌ جدًّا".

ابتسم والدها وقال: "ساعديني حتى ننتهي منها قبل عودة أمِّك من الخارج ورؤيتها لكلِّ هذه الأواني الوسخة".

ضحكت فينيسيا وبدأ مساعدة والدها على تنظيف المطبخ وترتيبه، حتى بدا وكأن شيئًا لم يكن.

استمتعوا تلك الليلة بالفطائر اللذيذة، ثم ذهبت إلى غرفتها لتكمل عملها على الأغنية التي كانت تدندنها غفت وفي أحضانها الورقة والقلم.

تراءى لها أنها كانت تستحم في بركة جميلة جدًّا.. من حولها كلُّ الأزهار التي تعجب النظر، ومياه البركة صافية كأن لا أحد قد لمسها إلا هي وحدها بداخلها، ثم تسمع خطوات قادمة من بعيد، وهي تنده: "فينيسيا، وأخيرا وجدتك".

تفز من نومها، تأخذ هاتفها لترى كم الساعة، كان موعد استيقاظها للذهاب إلى الجامعة.. غيَّرت ملابسها بسرعة وأخذت ما كانت تحتاج إليه في ذلك اليوم.. قادت سيارتها حتى الجامعة.

التقت أصدقاءها في الباحة الأماميَّة، وكانوا يعدون من أجل حفلةٍ لجمع التبرعات من أجل مستشفى الأطفال، وطلبوا منها أنْ تعزف مع الفرقة التي خصصت للحفلة.. وافقت على الفور؛ فقد كان حلمها أن تعزف في فرقة، وأن تسمِّع موسيقاها للعالم، وكلُّ طريق يبدأ بخطوة وهذه خطوتها الأولى.. أخذها أحدُ الأصدقاء ليعرِّفها إلى رئيس الفرقة؛ كان شابًّا ثلاثينيًّا بشعر بني وبشرة ناصعة البياض جدًّا.

لم تتعرف إليه من بعيد، لكن لما تقرَّب توسعت عيناها؛ فهي تعرفة؛ لقد قابلته بالأمس عندما كانت تعزف وقاطعها. تقدَّم بابتسامة وخطوات ثابتة تكاد تسمع وقع أقدامه وقال: "اهلا جيمس.. ما الأخبار؟".

أجاب جيمس: "بخير، لقد جلبت لك العازفة التي كلمتك عنها".

ابتسم هو وتوترت هي، مد يده لها ليحيها، وكأنه لا يعرفها وقال: 'أهلا بك.. أنا جو، وأنتِ؟

قالت وكأنها لا تعرفه أيضا: "أنا فانيسيا، سررت بمعرفتك".

"وأنا أيضا، لقد شكر فيك جيمس كثيرا".

قالت: "إنه صديق جيد ويدعمني كثيرا".

قال جيمس مقاطعا:

"لست أجامل بل أعرف إمكانياتك.. أعتقد أنك ستنفعين جيدا، جو بموسيقاك، لما لا تعزفين قليلا.. هيا".

هنا، والآن؟!". أجابت:

"نعم، هنا، لدي جيتار". نده جو على أحد أفراد الفرقة ليعطيه جيتارًا وسلمه لفانيسيا. أخذته من يده، أغمضت عينيها، تنفست بعمق وبدأت تعزف نفس تلك المقطوعة التي كانت تدندنها أمس.

أعجب الكل بعزفها، وضمها جو رأسا للفرقة، لكنه حدثها على انفراد وقال لها: "أريد أن أراك الليلة، هل أستطيع ذلك؟".

سألته: "لماذا؟".

أجابها: "أريد أن أتعرف إليك أكثر، يبدو أن لقاءنا ليومين خلف بعض يجعلك تفكرين.. لم لا، أليس كذلك؟".

قالت فينيسا: "لا أدري".

أجاب هو: "سأنتظرك بنفس المكان الذي رأيتك فيه، لو أتيت سأكون سعيدا وإذا لم تأتي سأحترم حدودي.. أعدك".

أومأت برأسها، وعادت مع جيمس إلى الحرم الجامعي لتكمل يومها.

كان جو يجلس على الرمال وقد وضع تحته غطاء أزرق، وبيده جيتاره يعزف هذه المرة هو، وينتظر لقاء فانيسيا بفارغ الصبر. ليس لديه أدنى فكرة عن قدومها أو تعذرها عن القدوم، لكنه كان ينتظر ويتمنى من كل قلبه أن تأتي ويراها تقف أمامه.

وبينما هو يصلح أوتار الجيتار في يده، سمع صوتها من خلفه تقول: "على فكرة، لديك طاقة غريبة تجعل كل من يراك يشعر بأنه يجب عليه اتباعك".

ضحك جو وقال: "لا أعتقد أن هذا الوصف الصحيح، لكن أنا سعيد أنك أتيت".

جلست بجانبه وقالت: "لماذا؟".

أجاب "لماذا ماذا؟".

"لماذا تصر على رؤيتي والتحدث معي في كلتا المرتين اللتين رأيتك فيهما".

"إذا أخبرتك لن تصدقين، لقد جلبت لك العازفة التي كلمتك عنها".

قالت: "جربني إذن".

"حسنًا.. هل تصدقين الحب من النظرة الأولى أو الإعجاب ربما أو تخاطر الأرواح؟".

قالت ضاحكة: "غير مصدقة.. لن تقول إنك تحبني، هذه خدعة قديمة للإيقاع بالفتيات".

"أرأيت؟! قلت إنك لن تصدقيني".

"هههه، لأنها مضحكة جدًّا ومستهلكة، لو كنت اخترعت شيئًا جديدا مبتكرا ربما كنت صدقتك".

"لا يهم الآن إذا صدقتني أو لا، لكنك ستقعين بحبي قريبًا.. أؤكد لك هذا".

"لا، أنت مغرور أيضا".

قال: "وهذه ميزة أيضا في".

ابتسمت فانيسيا وقالت: "لندع المزح جانبا، ونتحدث بالعمل.. ما رأيك؟".

هز جو رأسه وقال: "جيد، لنتحدث إذن".

تناقشا قليلا ببعض الأغنيات.. عزف هو على جيتاره، ثم أخذت هي وتدربت على إحدى الأغاني، ولما تعبا استلقى جو على الغطاء الأزرق أمام أنظارها، وقال: "الليلة صافية جدًّا، انظري إلى النجوم كم جميلة هي!".

تشجعت هي الأخرى وألقت بجسدها على الأرض، وكانت تطالع النجوم معه، قالت بنفس هادئ مطمئن:

أتعلم، كانت جدتي تعرف تقريبا كل أسماء النجمات، وكنت دائما أبات عندها حتى تحكي لي حكايات جميلة عنها. دائما كان هناك في كل أسطورة قصة للنجوم فيها، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعشق الليل ونجومه، لكن منذ توفت لم أنظر إلى النجوم هكذا، ولم أتحدث عنها منذ زمن ليس بطويل".

كانت هي تتحدث، وكان هو يطالع في وجهها ويتخيلها هي إحدى النجمات التي سقطت على الأرض، فقال: "ليس كل النجوم في السماء، بل هناك نجوم على الأرض أكثر لمعانا".

أدارت رأسها إليه، وهو ما زال يطالعها.. ابتسمت له ابتسامة طمأنينة ثم نهضت وقالت: "حان وقت عودتي".

أجابها هو: "لا تتأخري غدا، سيكون أول أيام التدريب.. لم يتبقَ على الحفل سوى أسبوعين".

أومأت برأسها موافقة، وعادت إلى المنزل وهي تبتسم لنفسها طوال الطريق.

*****

بمرور الأيام، أصبح تقاربهما أكثر وأكثر، كانت تتحمس لأوقات التدريب وهو لا يرى شيئا سواها.

ساعدها على إكمال الأغنية التي كانت تدندنها على ذلك اللحن الذي لا تعرف حتى كيف طرأ على ذهنها ومن أين سمعته قبلا.

كانت تشعر أنها تمتلك كل حبال المعرفة وهي بقربه.. كان يدهش كل إنسان حوله كأنه يعرف كل شيء عن أي شيء، وهذا الإعجاب ملء قلبها، حتى طاف به واندلق فاصبح عشقا غير معقول.

في أحد الأيام بعد أن تفرقت الفرقة من بعد التدريب، أخذها جو بسيارته الفولفو القديمة السوداء إلى مكان ساحر جدا.

كان الجو باردًا نوعا ما. ركن سيارته.. أخذ مصباحًا يعمل بالبطاريات، وأكملا الطريق مشيا عبر بعض الأشجار المتشابكة ليقفوا. بركة تحدها الصخور والأشجار من كل جانب، وضوء القمر والنجوم يعكس على سطحها الصافي كأنها لآلئ تطفو على وجه المياه أو شعلات نار بيضاء براقة تضيء عتمة المكان.

نظرت من حولها، وقالت: "هذا منظر رائع، كيف تعرف هذا المكان؟".

"ليس أنت فقط من يبهرني بقصصك أنا أيضا لدي قصص ستبهرك".

أجابت هي وقالت: "إنه حقا مكان رائع، إذا كان هكذا في الليل فكيف يكون في النهار؟!".

أجابها وهو ينزع ملابسه: "ما رأيك لو تجربينه الآن معي".

"هل أنت مجنون؟! إن الجو بارد؛ قد نمرض".

ضحك وهو ينزع بنطاله وقال: "هل تخافين من البرد، أم تخافين أن أكون أشجع منك مثلا".

استفزها بقوله ولم ترد عليه إلا بنزعها هي الأخرى، والسقوط قبله بالمياه.. كانت باردة جدا بدأت بالارتجاف لثوانٍ حتى تعوَّد جسدها حرارة المياه وغطسا قليلا.. بعدها عادا إلى اليابسة.. أخذها جو إلى أحضانه ليدفئها بجسده.. كانت أنفاسه تدفئ يديها.. تطالعه بحنو وهي تراه كيف يحاول أن يبقيها دافئة.

وبينما هي تنظر إليه هكذا تقربت إليه هي.. قبلته ثم ابتعدت عنه، لكنه عاد وسحبها إليه، وعاد يقبلها فكانت هذه المرة الأولى التي يلمسها بها رجل، وقد أعطته الحق بأن يكون هو أول من يرعش جسدها ويدفئه في آن واحد.

أخذها وعاد بها بعد أن مارسا طقوس الحب واحترقا بناره الذي كواهما منذ الأزمان.

عادت إلى المنزل.. كان الوقت متأخرا قليلا.. ووالداها كانا قلقين عليها.. كاد أن يتشاجر الأب وابنته إلا أن الأم وقفت بينهما، وأخذت ابنتها لتفهم منها أين كانت.

قالت الأم: "هل تعلمين كم كنا مرعوبين عليك! لم تفعيلها من قبل قط.. أين كنت؟ وهل هذا هو رئيس الفرقة؟

أجابت فينيسيا وقالت: "نعم يا أمي، ولاني لم أفعلها من قبل لأني أغرمت يا أمي.. أغرمت.. لقد وقعت بالحب وهو يبادلني الحب أيضا".

تنفست الأم بعمق وقالت:

"لا أدري ماذا أقول، لكن على الأقل كنت أخبرتنا قبل أن تتأخري".

"أعدك يا أمي أني سأخبرك مرة أخرى، والآن يجب أن تهدئي من غضب أبي".

قبلتها الأم من جبينها وأغلقت باب الغرفة عليها وخرجت، أما فانيسيا فقد ألقت بنفسها على السرير تتذكر للتو ما عاشته مع جو.

استيقظت ذلك الصباح على أصوات حديث وضحكات قادمة من صالة الجلوس، ولما نزلت من غرفتها وجدت جو يجلس مع والديها ويتحدثان..

قاطعتهم وقالت متسائلة: "جو ما الذي تفعله هنا؟".

أجابت الأم: "لقد أتى ليعتذر، ويعرِّف بنفسه، إنه لطيف حقا".

ابتسم جو لها ورفع يده ليحيها، ابتسمت هي أيضا، وجلست بجانبه وهي تشاهده كيف يتحدث مع والديها؛ فله سحر خاص يجعل كل من حوله يقع في حبه..

هناك هالة خفية حوله لا تعرف من أين مصدرها، لكنها بالتأكيد لا تعرف أي شيء عنه، وهو لم يحدثها قط عن نفسه، لم يخبرها مثلا عن أمه أو أبيه، لا تعرف إذا كان لديه إخوة أو أخوات.. لا تعلم حتى إن كان يعيش هنا أو في منطقة أخرى.

وبعد أن انتهى وقت الزيارة، خرجت معه إلى الخارج وقالت: "لقد انتبهت لشيء ما".

أجاب: "ماذا يا حبيبتي؟".

قالت: "لا أعرف أي شيء عنك، وغدا يوم الحفلة، إذا أردت أن اعزف معكم، يجب أن تخبرني بكل شيء يخصك".

قال لها مبتسما: "كنت أنتظر أن تسالينى وأني أخاف أن أجيبك لأني لا أعرف رد فعلك، لكني أعدك أن أخبرك بعد الحفل لو سمحت".

"لكني أريد أن أعرف شيئا يجعلني آتي للعزف". قالت مؤكدة.

أجاب هو "إذا أخبرتك أشياء لا يعرفها كثيرون، لكني أعرفها منذ وقت طويل.. هل ستصدقين؟".

قالت باندهاش: "حسنًا".

أجابها: "تكرهين رائحة السمك كثيرا، لا تحبين البيض المسلوق، تخافين من الصواعق والبرق".

اتسعت عيناها وهي تستمع إلى ما يقوله؛ لا أحد يعرف عنها هذه الأشياء سوى والديها.. قالت:

"لا بد أنك عرفت هذا من والدي".

أجاب: "لا.. لكن لأخبرك شيئا لا يعرفه أحد سواك، إنك تحلمين ببركة صافية محاطة بزهور غريبة تسمعين فيها وقع أقدام وصوت يندە باسمك".

تراجعت فينيسيا هذه المرة إلى الخلف خطوة وقالت: "وكيف تعرف هذا عني؟".

أجابها: "سأخبرك بعد الحفل بكل شيء، أعدك، على فكرة الرجل في حلمك أنا".

قبلها من خدها، ثم قال قبل أن يركب سيارته:

"أراك مساءً للتدريب الأخير قبل الغد.. كوني مستعدة".

ظلت جامدة لا تتحرك وهي مندهشة، بل تدهش كل يوم أكثر بسببه.

يقال إن الحب خلق مع الإنسان، وإن آلهة الحب أنعمت به عليه وأعطته فرصة واحدة ليجد توأم روحه فرصة واحدة قد يصادفها في حياته أو لا، وكل التجارب التي يعيشها الإنسان ليست حبا حقيقيا إلا إذا وجدت توأم روحك المختار لك منذ الأزل.

كان الحفل مكتظا بالجماهير التي قدمت لتستمتع بوقتها ولتساعد في جمع التبرعات التي يحتاجون إليها، وبدأ العزف.. كانت الأغنيات تلمس كل من يسمعها؛ تارة يشعر بالحب وتارة تدمع العيون، اشتياق للحبيب، وتارة أخرى يسكب ما في القلب من ألم لينتهي منه إلى الأبد.

ولما انتهى جو من غنائه للأغنية الرابعة، توقفت الفرقة عن العزف. استدار خلفه كانت فينيسيا واقفة وبيدها جيتارها، ثم عاد واستدار إلى الجمهور وقال: "إذا سمحتم سأقدم لكم صوتا وأغنية ستأخذكم إلى عالم الأحلام.. إلى عالم تستطيعون فيه أن تقابلوا حب حياتكم.. كل ما عليكم أن تغمضو أعينكم وتستمعوا بقلوبكم.. ستشعرون أنكم سافرتم عبر الأزمان. ستشعرون بذلك بكل تأكيد.. صفق الجمهور بحماسة، ثم قال جو وهو يعطي مكانه لفينيسيا: "هيا يا جميلتي أبهريهم".

لم تصدق ما الذي فعله جو لتوه.. تقدمت ببطء متوترة بخطوات فيها من الخوف والرهبة.. تعزف وتغني لأول مرة على مسرح لمئات الوجوه التي تطالعها، ومئات الآذان التي تسمعها.

وقفت مكان ما كان يقف جو.. مررت أصابعها على أوتار الجيتار.. أغمضت عينيها لتأخذها الموسيقا إلى حيث تشاء وبدأت تعزف تحت صمت المشاهدين.

لثلاث دقائق أخذتهم فينيسيا من الواقع إلى عالم الأحلام.. اختاروا أن يغمضوا عينيهم معها، وكل واحد كان يطارد حلمًا لم يستطع الإمساك به.. كل واحد منهم شعر بسيل من المشاعر تدفق إلى قلبه ووجدانه، حتى جو كانت عيناه تدمعان حبا لها وانبهارا بما استطاعت فعله من فوق هذا المسرح وما استطاعت فعله به كل هذا الوقت وعلى مر الأزمان.

كانت فينيسيا تعزف.. وفي آخر مقطع لها شعرت بوخز في مؤخرة رأسها.. ارتجف صوتها لكن لم يشعر أحد سوى جو.. استطاعت ان تتمالك نفسها وتكمل حتى النهاية، ولما انتهت انحنت أمام الجميع تشكرهم، وغادرت المسرح وهي خائفة أن تقع أمام الجمع الغفير فتسبب بحالة هلع، حتى إنها شعرت ببعض التشوش في عينيها. شعر جو بأن أمرًا ما أصابها.. أمسكها من ذراعها لما تقربت منه، وقال: "هل أنت بخير؟ هل تشعرين أنك بخير؟".

أجابت وهي تمسك برأسها بين يديها: "لا أدري.. لا أستطيع التركيز ولا الرؤية بوضوح وكأني سيغشى عليَّ".

اتكات عليه وأخذها إلى الكرفان الذي كان يستخدمه من أجل التنقل فيه،

لكن لم تحملها ساقاها، ولم تستطع الصمود أكثر.. وقعت بين يديه.. فوقع قلبه معها.. حملها بين ذراعيه وهو يردد: "لا، لا.. أرجوك ليس الآن.. لم تعش أي شيء بعد.. لا تأخذوها مني.. ما زال الوقت مبكرا جدا".

وضعها في المقاعد الخلفية لسيارته، وانطلق بها إلى المشفى، وهي بين الصحوة واللا صحوة.. تستمع لما يقوله وكأنها في حلم يقظة.

يرتعش كل جسده خوفا عليها.. لم يكن بها شيء قبل دقائق فقط، ما الذي سيكون سبب هذه النكسة الفجائية، لقد عثر عليها منذ وقت قصير فقط.. ما هذه اللعنة التي يعيشها!

بعد ساعات فقط، كان الأب والأم وجو يقفون بذهول.. لا يصدقون ما يقوله الطبيب المختص بعد أن طلب عمل تحاليل وأشعة لفانيسيا.. حينما أوصلها جو بتلك الحالة.. ساعات فقط غيرت حياة من حولها، تشخيص قلب موازين الحياة وأولهم حياة فانيسيا.

لم تتمالك الأم نفسها؛ وقعت على الكرسي من هول الأخبار التي سمعتها، وزوجها يحاول أن يخفف عنها ويبقيها متماسكة. أما جو د، فظل واقفا أمام غرفة فانيسيا يتابع نومها الجميل وكأن لا شيء حدث.

لم يقاوم وجودها هناك.. كان غاضبا من نفسه.. يؤنب نفسه دائما على كل أمر يحل بها، على كل مرة يظهر في حياتها فتبدأ المعاناة، إنه ملعون ولعنته شملت حبه لها وشملتها معه، في كل انبعاث جديد يحاول أن يبقى بعيدًا عنها، لكن الأقدار تجمعهم وهو لا يتحمل بعدها.. وقربها أيضا معضلة فيخسرها دائما بطريقة أو بأخرى، لكن هذا قدره وهذه لعنته.

خرج من المشفى يقود سيارته بلا وجهة معروفة.. يبتعد قدر الإمكان عنها، وعن كل شيء يربطه فيها.. يذهب بعيدا في ذلك الليل الذي أطبق على أنفاسه وكأنه تحت آلة الضغط الهيدروليكي تحطم أي شيء.. تحتها كان يشعر بقلبه يتحطم هكذا.

هام على وجهه طوال الليل، لا يشعر حتى بأطرافه المتجمدة أو أنه لم يعد يهتم حتى، لقد ملل من هذا الانبعاث القاسي الذي يعيشه كل يوم وبالأخص حين لا تكون محبوبته بجانبه، وكم هي طويلة تلك السنوات التي يعيشها وحيدا.

غفا وهو مثقل بأحزان إذا وضعت على ظهر جمل لكسرته.

*****

متعبة من نوم طال، مستلقية على ذلك السرير الأبيض بفراشه الأبيض، حتى إذا لم تكن مريضا أمرضك. قد حقنت ببعض المحاليل، وعيناها ما زالتا مثقلتين. لما فتحت فمها وطلبت القليل من الماء لأنها عطشة.. أسرعت امها واعطتها لتروي عطشها، وساعدتها على الاتكاء.. تنفست بعمق وثقل وقالت:

"ما الذي حدث يا أمي؟ وأين أبي؟".

أجابت الأم بصوت يرتعش، لكنها تظهر نفسها على أنها قوية وقالت:

"لقد أغمي عليك، جلبك جو ليلة البارحة ووالدك ذهب للمنزل ليجلب بعض الأغراض التي بحاجة إليها".

'كيف حدث لي ذلك؟ أنا لم أعانِ من شيء.. وأين جو؟ لا أراه". قالت باضطراب.

أجابتها أمها؛ "لقد خرج أمس ولم يعد بعد، كان يبدو عليه الحزن جدا، إنه

يحبك كثيرا، وأنا أرى هذا في عينيه".

عادت فانيسيا وكررت نفس السوال: "ما الذي حدث لي؟ ولمَ أنا هنا؟".

أزاحت الأم وجهها، كيف لها أن تخبرها أنها شخصت بمرض السرطان، وفي مرحلته الثالثة، وأعجوبة فقط من السماء تنتشلها من موت محقق، لكنها لا تستطيع أن تقول هذا لها.. كيف ستخسر ابنتها الوحيدة وبسرعة هكذا؟

أجابت وهي تحبس الدموع في عينيها: "سأخبرك حالما يصل والدك. اما الآن فارتاحي فقط".

حاولت النهوض وقالت: "لا بد أنه أمر خطير، هل أنا مصابة بمرض مميت؟ ولهذا لا تخبريني".

انتابتها نوبة من الهلع والغضب.. ندهت الأم للمساعدة، وبينما أتت بعض الممرضات ليهدئنها.. كان جو قد وصل لتوه إلى غرفتها التي تبقى فيها، ولما رأته هدأت لدقيقة، وكأنها تستنجد بعينيها له ليفهمها ما الذي يحدث.

لما هدأت تركوها بعد أن أعطوها مهدئًا.. أيضا جلس جو بجانبها ممسكا بيدها يقبلها تارة ويمسح دموعها تارة.. فقالت له: "أخبرني أنت، ماذا بي؟ أمي لا تستطيع إخباري.. يبدو أنني سأموت.. أليس كذلك؟".

قال: "لن أسمح بموتك.. ليس هذه المرة.. ما زال الوقت مبكرا".

"ما الذي تعنيه؟ لا أفهم.. ماذا بي؟ وكيف لن تسمح بموتي؟".

تنفس نفسا عميقا، وقال: "بعد أن أغمي عليك ليلة الأمس جلبتك إلى هنا، وبينما يتفحصك الطبيب دخلت في نوبة ارتعاش غريبة، اضطر الأطباء إلى القيام بعدة فحوصات وأشعة لك.. تبين أن معك سرطانًا بالدماغ بحجم حبة جوز

كبيرة في منطقة خطره جدا، حتى إذا قامو بعملية جراحية لن يستطيعوا أن يقتطعوه كله.. كما يجب أن يعالجوا ما.تبقى بالعلاج الكيمياوي.. وهذا لن يطيل بعمرك سوى سنة بالكثير".

يرتجف صوته وهو يحدثها، وتتوسع عيناها وتنغمر مآقيها بالدموع وهي تشد على كفيه مثل طفلة تتشبث حتى لا تقع.

حنى رأسه وأخذ يبكي ويبكي وهي تمسح على شعره كأنها أمه، وتواسيه وهي من تحتاج للمواساة.

رفع رأسه ونظر إليها قائلا: "لا أريد أن أخسرك يا فينيسيا.. ما زلت شابة وأنا لست مستعدا أن أبقى على ذكراك لسنوات أُخر".

بلعت ريقها وهي تستمع إليه، وما يقوله.. لاوتفهمه.. قالت:

"أنت تتحدث بالغاز.. ماذا هناك؟ لا أفهم".

طالع في عيونها وقال: "ساخبرك لكن يجب عليك أن تصدقيني؛ فأنا لست مجنونا أو كاذبا.. قد يكون رد فعلك في كل مرة أخبرك فيها يتغير، لكن لم يحدث أن أخبرتك وأنت مريضة".

توسعت عيناها وقالت: "كيف يعني؟ هل نعرف بعضنا من قبل؟ هل تقابلنا من قبل؟".

قال: "نعم، نحن نعرف بعضنا منذ ٦٠٠ سنة.. نعم، ٦٠٠ سنة مضت حين وقعت بحبك لأول مرة، ولعنت بعدها، وأنا أجدك كل ١٠٠ سنة حين تبعث روحك من جديد.

تركت فينيسيا يديها من بين يدي جو.. أصاب جسدها قشعريرة غريبة..

ارتجفت كل أعضائها، ولما رآها جو هكذا نهض من جانبها، وابتعد.. خاف أن تنعته بالكذب أو تطرده حتى من أمامها.. وقف بجانب النافذة وهو ينظر إلى الخارج وقال: "أعلم أنك قد لا تصدقيني، لكني لا أريد سوى أن أكون بقربك.. سأخبرك بكل شيء لو سمحت أو أختفي الآن من أمامك إلى الأبد.. الاختيار لك".

سكتت لثوان وهي تفكر "هل يا ترى يستحق أن تسمع له أم أنه فعلا مجنون، لكنه لا يعد طبيعيا أيضا". كانت دائما تشعر بشعور غريب وهو من حولها حتى إنها لا تعرف أي شيء عنه، ولم يحدثها كما وعد. قالت: "كنت قد وعدتني أنك تحدثني عنك.. لديك فرصة واحدة لتثبت أنك لا تكذب، وسأعطيك فرصة واحدة لتشرح كل شيء، وإذا لم أقتنع لا أريد رؤيتك بعد اليوم".

طأطأ برأسه موافقًا وقال: "كنت قبل ٦٠٠ سنة أجمل فتاة رأيتها في حياتي، ولدت لأم وأب فلاحين، وحين كبرت قليلا بالضبط حين أصبح عمرك ١٦ عاما، دخلت إلى الدير حتى تنذري نفسك لله، ولكني وقعت في حبك آنذاك وأنا أرى فيك تلك الخاشعة.. حتى إني حسدت الخالق على حبك له، وبسبب طيشي طلبت من رئيسي أن يحولني إلى إنسان حتى تفوز بقلبك...".

قاطعته هي قائلة: "كيف يعني أن يحولك لإنسان؟! ماذا كنت قبل ذلك؟".

"كنت ملاكك الحارس، عينت لأكون حارسا لخطواتك، لكن بدلًا من أن أحرسك وقعت في حبك، وكانت هذه خطيئتي، ومما زاد الطين بلة أني اخترت أن أصبح إنسانا لأني اخترتك أنت، وطلبت من رئيس فرقتنا الملائكية هذا".

"وماذا حدث بعدها؟". أجابت هي.

أكمل جو قائلا: "أدخلني الرئيس في اختبار، وهو أنني لو استطعت أن أجعلك تقعين في حبي خلال ثلاثة أيام، سيغير من كينونتي ويحولني إلى إنسان، وكان هذا الشرط الأول، وقبلت دون تفكير؛ رغبة مني أن أصبح عشيقا لك، وتصبحي أنت حبيبتي.. كنت مستعدا أن أموت بعدها.. فقط أن أموت بين ذراعيك لو احتاج الأمر.

وحدث ما حدث وظهرت أمامك في اليوم الأول وكان أجمل يوم عشته في حياتي كلها فبعد سنين من حراستك ومراقبتك، وأنت لا تعلمين شيئا رأيتني وأحسست بي كإنسان مثلك، وبعد ثلاثة أيام، استطعت أن أوقعك في حبي، كما كان مقررًا وربحت الجولة الأولى، لكن لم أعلم أن الجزء الثاني من الاتفاق كان هو الأصعب؛ فقد حكم علي بالخلود لا الموت مثل الإنسان وأن أعاني فقدك في كل مرة أحصل عليك فيها، وكل مرة تقعين في حبي، يكون قد مضى على فراقنا ١٠٠ عام وأنا أنتظر كل ١٠٠ عام أجول في الأرض كلها بحثا عنك...".

قاطعته فينيسيا وقالت: "وهل أحببتك ٦ مرات كما تقول؟ وكيف كنت تعثر عليَّ أو عليها أو على روحي؟".

ضحك جو وقال: "اللحن.. اللحن الذي كنت تعزفينه هو الخريطة التي تدلني عليك.. روحك كانت عازفة وكل مرة تبعثين من جديد تكونين عازفة، وبسببه أجدك؛ فالرابط بيني وبين اللحن وهو رابط روحي، أشعر به في أحلامي فيدلني على مكان وجودك. أما كيف كنت أراك، فهذه قصة أخرى؛ وجدتك في مدن ودول مخالفة؛ كنت مرة ابنة ارستقراطية، ومرة كنت كاتبة معروفة، ومرة

كنت ممرضة في الحرب العالمية الأولى، وأخرى كنت مهاجرة، والآن هنا".

وعاد للبكاء يجهش كأن قطعة من روحه تقتطع منه.. لم تتحدث بل كانت ساكنة في قرارتها، تصدق ما يقول، لكن لو سمع أي شخص هذا الكلام لنعته بالجنون فعلا؛ يبدو فعلا شيئا خياليًّا.. لا يحدث إلا بالأساطير أو الأفلام.. تقرب منها بخوف أن ترده وقال: "هل تصدقيني يا حبيبتي؟ هل تصدقين هذا الملاك المعذب بحبك؟ هذا الذي رفض كل النعم ليكون معك، وكان عقابه ثقيلا جدا".

أجابت هي "إني أصدقك، لكن لن يصدقك أحد غيري".

"ما الذي ستفعلينه إذن.. لا تختاري الفراق.. أرجوك يكفي أني أفترق عنك كل ١٠٠ عام وأتعذب حتى ألتقيك مرة أخرى.. كانت تكفيني أيام لأحبك فيها وأني أتحمل كل السنين لأني أعلم بوجودك المؤكد القادم".

أجابته وقالت: "لن نخبر أحدًا.. وإن كنت ستخسرني فالنعش ما تبقى لنا.. أشعر أني متصلة بك.. أجل، أشعر بهذا حتى لو أن كل ما حكيته للتو جنون مطلق، لكني أصدقك".

تقرب منها واحتضنها، بل قبل شفتيها التي لا يشبع منهما.. وضع جبينه على حبينها وهو يتنفس بسرعة قائلا: "ساظل معك حتى تنتصري على مرضك.. ونعيش أطول فترة ممكنة مع بعض".

أومأت برأسها موافقة فلا يوجد حل إلا أن تقاوم من أجل حبها.. لم تصب اللعنة جو الملاك العاشق فقط بل أصابتها أيضا. لأنها فضلت حب الإنسان على حب الخالق.. وكان هذا عقابها؛ فهي تموت ولا تعيش كثيرا بقربه، وهو ينتظر

انبعاثها كل ١٠٠ عام، ولا يموت بل يعاني ببطء شديد غيابها، لأنهما تحديا قدرهما وما كان مكتوب لهما منذ البداية.

خضعت فينيسيا للجراحة ثم العلاج الكيمياوي.. أشهر كانت تعيشها في ألم متواصل بين الإعياء والغثيان وتساقط الشعر والنوم القليل.. وكان جو بجانبها، حتى إنه عرض الزواج عليها.. ووافقت بكل فرح رغم الألم.

كان جو يقص عليها كل يوم الحكايات التي عاشها والتي عاشاها معًا.. يخفف عنها آلامها، ويتذكر ما كان بينهما، وكأنه يخبرها بحكاوي ألف ليلة وليلة، وهي تصغي له وكأنها تريد أن تتذكر ما يتذكره وحده فقط.

وجاء موعد الاختبار الرابع من أجل أن يتاكدوا أن المرض اختفى أو ما زال، وكانت المفاجأة أن السرطان قد اختفى وأن دماءها نقية والورم الذي في رأسها اختفى.

كانت السعادة التي غمرتهم بعد تلقي هذه الأخبار لم تسعها صدورهم وقرروا الزواج على عجلة.

وبعد شهر فقط، تزوجا بحفل زفاف على البحر حيث التقيا أول مرة.

قبلها أمام جميع المدعوين حين أعلنهما القاضي زوج وزوجة للمرة السادسة بعد ٦٠٠ عام من أول لقاء بين ملاك هائم عاشق وبين إنسانة متيمة به.

أخذها إلى جزيرة سياحية ليقضيا بعض الوقت أو ما يسمى شهر العسل، فعاشا أيامًا لا تنسى، بل كل الأيام التي قد عاشاها مخلدة في ذاكرة جو.

لكن كانت الساعة الأكثر إيلاما حين بدأت تشعر فانيسيا بعد شهرين بصداع قوي في رأسها وآلام في بطنها، ولم تتحمل الألم، فاخذها جو للمشفى

ليكتشف بعد التحاليل أن السرطان قد عاد، وهذه المرة انتشر في أجزاء من جسدها، لكن كان لوقع الخبر أثره الشديد على جو أكثر من فنيسيا، وقد آمنت بقدرها وموتها المحتوم عليها.

لم يفارقها جو بالأيام التي تلت.. كان يسهر طوال الليل على راحتها، حتى طلبت فنيسيا منه ذات ليلى أن يستلقي بجانبها، وفعل ما طلبت، فأخذها إلى صدره تحتضنه هي بشدة لا تود تركه.

فحينها فقط أسلمت روحها لبارئها بين أحضانه، كما تمنت دائما تاركة إياه وحيدا مرة أخرى، يدفنها تحت التراب ويهيم على وجه الأرض، ليبحث عنها مرة أخرى.. ينتظر بشوق عاشقًا، فارق الحب أحضانه، ويحتضن القبر في كل مرة الإنسانة التي عشق ولا يزال يعشق إلى الأبد.